الجزء الثالث

أصالة لا رجعية

و

تحديث لا تغريب

- ما مفهوم الرجعية؟
- الرجعية والتراث
- أهمية التراث لأمتنا.
- خصائص تراثنا
- المستوى المعصوم من التراث
- المستوى البشري من التراث
- ضرورة الانتقاء
- عبقريات في عصور التخلف
- بين القديم والحديث
- ظاهرة التعظيم للحديث
- القدم والحداثة لا علاقة لهما بقيمة الأشياء
- القدم والحداثة نسبيان
- الغلو في التحديث مرفوض
- المفاضلة بين القديم والحديث
- بين التغريب والتحديث
- الإسلام يفي بكل حاجات المجتمع التقدمي:
  (العلم، الفن، الحرية، المال، القوة العسكرية، الصحة العامة، الحياة الطيبة، الزراعة، التجارة، الصناعة)

أصالة لا رجعية
و
تحديث لا تغريب

كما اتهم بعض الناس الحل الإسلامي بالجمود الذي ينافي التطور، نجد هؤلاء أنفسهم يصِمون هذا الحل بتهمة أخرى تُذكر عادة مع الجمود، وهي «الرجعية».

وهي كلمة حديثة العهد يستخدمونها بدل كلمة «السلفية» التي لا تعطي انطباعاً منفراً لدى الجمهور المسلم كما تعطيه كلمة «الرجعية».

ومن عادة هؤلاء ـ بل من مكرهم ـ أن يدعوا هذه الألفاظ والمفاهيم مائعة غير محدودة، كما رأينا في مفهوم «الجمود والتطور» ليفسروها كما يحلو لهم.

ولهذا كان من واجبنا أن نبدأ هنا كما بدأنا هناك بتحديد المفاهيم أولاً.

ما مفهوم الرجعية؟

نريد أن نسألهم: ما مفهوم «الرجعية والتقدمية» عندكم؟.

إن كنتم تريدون بالرجعية ما شاع في عصور الضعف والانحطاط من أفكار وقيم دخيلة على الحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، من جبرية قاتلة تحمل كل شيء على القضاء والقدر، ومن سلبية تدع الأمور تجري في أعنتها، ومن احتقار للحياة، ورضا بالدون، والعيش الهون، ومن صبر على الظلم، وانصراف عن الجهاد، ومن تعظيم للفئات الغنية المترفة، وتحقير للطبقات الفقيرة العاملة، ومن إيمان بالخرافة، وتصديق بالعرافة والكهانة، والسحر،

واتباع للدجاجلة المحتالين من أدعياء التقوى، الذين يعلمون أتباعهم: أن المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل، ويقولون لكل ثائر على الباطل: «دع الملك للمالك»... أقام العباد فيما أراد!! إن كنتم تريدون بالرجعية هذا ومثله، فنحن معكم في معارضتها، بل أسبق منكم إلى حربها، ولكن الذي نؤكده لكم: أن هذه الأفكار والمفاهيم إن هي إلا جراثيم غريبة تسللت إلى جسم الإسلام.. أدخلتها المذاهب المبتدعة، والفرق الضالة، والصوفية المنحرفة التي تأثرت ـ قصداً أو عن غير قصد ـ بأديان ونحل وفلسفات غير إسلامية، كالرهبانية المسيحية، والمانوية الفارسية، والبرهمية الهندية وغيرها.

وقد ساعد على انتشار بعض هذه الأفكار فجور بعض الحكام أو جهلهم أو ضعفهم، وممالأة بعض العلماء أو سكوتهم، خوفاً أو طمعاً، أو ضعفاً أو غفلة. وفي الأثر: «صنفان من أمتي إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس... الأمراء والفقهاء».

ويوم كان الإسلام إسلاماً، وكان المسلمون مسلمين حقاً، برىء مجتمعهم من هذه الأفكار المنحرفة، وعاش المسلمون سادة يَغلِبون ولا يُغْلَبون، ويقودون ولا يقادون، وتفتحت عليهم بركات من السماء والأرض، وأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ووطئت سنابك خيولهم ممالك الأكاسرة والقياصرة، وورثوا كنوزهم فأنفقوها في سبيل الله.

الرجعية والتراث:

سيقول بعضهم: الرجعية هي الرجوع إلى الخلف... إلى الماضي... إلى الأموات!.

والحل الإسلامي ينادينا في أواخر القرن العشرين أن نعود أربعة عشر قرناً إلى الوراء... إلى القرن السابع... إلى عصر أبي بكر وعمر وعثمان وعلي... إلى عصر الأمويين والعباسيين والمماليك والعثمانيين.

الحل الإسلامي يشدنا بقوة إلى التراث... إلى الماضي، بما فيه من تعصب ديني... وانغلاق فكري... واستبداد سياسي... وتظالم اجتماعي... وتأخر اقتصادي...

الحل الإسلامي بصراحة، يقف في وجه «تحديث» المجتمع، ونقله إلى عالم اليوم، أواخر القرن العشرين!.

ونحن نريد أن نعيش يومنا، ونحيا في عصرنا: عصر العلم والتكنولوجيا، عصر الذرّة، والعقول الالكترونية، وغزو الفضاء... لا في عصر الجمال وقناديل الزيت!! نريد أن نعيش مع الأحياء لا في مقابر الموتى! نريد أن نحيا مع الجديد المتحرك، لا مع القديم المتحجر، نريد أن ننظر إلى الأيام، أن نتطلع إلى المستقبل، لا أن نمشي ونحن نتلفت دائماً إلى الوراء!! وهذه هي «التقدمية» التي ندعو إليها ونحرص عليها: تقدمية العلم والقوة والرخاء والحرية والمعاصرة!!.

أهمية التراث لأمتنا:

هذا هو كلام هذه الفئة التي تخلع على نفسها رداء (التقدمية) وباسمها تريد أن تنسلخ من تراثها، وتبرأ من ماضيها، كأنما هي مبتوتة الجذور، ليس لها تاريخ. كل حديثها عن اليوم والغد. كأن الزمن ليس فيه (أمس)! وكأن اللغة ليس فيها (فعل ماض)! وكأن الله لم يخلق الإنسان مزوداً بذاكرة تستوعب أحداث الماضي، كما خلق له مخيلة تستشف المستقبل!!.

هؤلاء الذين قال فيهم شوقي:

مثل القوم نسوا تاريخهم
كلقيط عي في القوم انتسابا
أو كمغلوب على ذاكرة
يشتكي من صلة الماضي انقضابا

وعيب هؤلاء (التقدميين) فيما يزعمون ـ أنهم يجهلوُن تراثهم ولا يعرفون عنه إلا قشوراً، أوأجزاء متناثرة مشوشة، كثيراً ما أخذوها عن مراجع استشراقية، أو عن مراجع غير موثقة، أو عن مراجع لا يفهمون لغتها، ولا يميزون بين المقبول فيها والمردود.

وكان الأولى بهؤلاء ـ وهم ينتمون إلى فئة المثقفين ـ أن يبذلوا بعض الجهد في دراسة تراثهم، ومعرفة هذا الدّين الذي ورثوه عن أهليهم، كما تورث العقارات! والذي أدخل هذه الأمة التاريخ من أوسع أبوابه، وصنع لها حضارة بزت الحضارات، ومن أوليات الثقافة أن يدرس المرء المكونات الأساسية لشخصية أمته، وأولها الدين المؤثِّر الأول في تفكيرها ووجدانها وسلوكها. على أن يعرف ذلك من منابعه الصافية. ومن مصادره الصحيحة لا من مراجع خصومه أو المتحاملين عليه، أو الجاهلين به.

لقد جهل هؤلاء تراثهم ـ والدّين جزء منه ـ فخافوه وعادوه. وقديماً قالوا: من جهل شيئاً عاداه. وهذا ما ذكره القرآن من موقف المشركين من الإسلام فقال: ﴿**بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله**﴾ (سورة يونس: ٣٩).

كما أنهم قرأوا عن الغربيين أنهم لم ينهضوا إلا بعد أن تحرروا من تراثهم، وفكوا عن رقابهم ربقة الماضي بما فيه من عوائق وأغلال. ومن ذلك تحررهم من ربقة الدين، وسيطرة رجاله الذين باركوا ظلم الملوك، وتسلط الإقطاع، وأقاموا محاكم التفتيش لتعذيب العلماء والمفكرين.

وحسب هؤلاء أن ماضينا كماضيهم، وتراثنا كتراثهم، وأن لدينا كنيسة مثل كنيستهم وكهنوتاً مثل كهنوتهم، وأن عندنا من يصدر قرارات الحرمان، أو من يبيع صكوك الغفران!.

وإن من أظلم الظلم أن يؤخذ الإسلام في الشرق، بجرائم الكنيسة في الغرب، وأن يقاس تاريخنا على تاريخ القوم هناك، وأن يحكم بالإعدام على تراثنا من أجل جناية تراث آخر لقوم آخرين.

ثم إن هؤلاء يتوهمون أن الرجوع إلى التراث يجعلنا سجناء الماضي، أو يضع قيداً على حركتنا وانطلاقتنا إلى الأمام.

والواقع أن تراثنا ليس ـ كما تصوره هؤلاء ـ قيداً في الأرجل، أو غلاً في الأعناق، إنما هو منارة تهدي، ونور يضيء.

خصائص تراثنا:

إن التراث الذي ندعو إليه ليس تراث أمة بدائية أو جماعة خرافية، وليس تراثاً مغلقاً ولا متعصباً، بل هو تراث رسالة خالدة، وحضارة ضخمة، وأمة كبرى، تراث أمة عالمية، جمعت بين العلم والإيمان، ووصلت الأرض بالسماء. تراث يتسم بهذه الخصائص، التي لا تخفى على دارس متعمق منصف، مسلماً كان أم غير مسلم:

أ ـ الإنسانية، فهو ـ وإن كتب بالعربية، وانطلق من المفاهيم والقيم الإسلامية ـ تراث إنساني، يهدف إلى تحرير الإنسان، ويعمل على كرامة الإنسان، كل إنسان، ويطالب له بالحقوق، كما يطالبه بالواجبات. يحفظ له حريته المدنية، كما يحفظ له حريته الدينية ﴿**لا إكراه في الدين**﴾ شعاره: ﴿**ولقد كرّمنا بني آدم**﴾.

ب ـ الأخلاقية: فهو تراث يؤمن بالقيم، في كل جوانبه، فقهاً كان أو أدباً أو علماً أو فناً، أو عمارة وحضارة، ولا يؤمن بفصل الأخلاق عن العلم، ولا عن الفن ولا عن السياسة، ولا عن الاقتصاد، ولا عن الحرب. فهو تراث يعبر عن رسالة هدفها أن تتمم مكارم الأخلاق.

جـ ـ التكامل: فهو يجمع بين أحكام الوحي الإلهي ونتاج العقل البشري، وفي ظلّه التقى العلم والإيمان، وامتزجت الدنيا بالدين، واتّصلت الشريعة بالحكمة، ولم ينفصم قلب عن فكر، ولا روح عن مادة، ولا دين عن دولة، ولا أدب عن علم، ولا عقل عن نقل.

د ـ التوازن: فهو تراث وسط لأمة وسط، لا يقف في طرف ضد طرف. فهو ليس تراث المثاليين ضد الواقعيين، ولا الواقعيين ضد المثاليين. وليس تراث الروحيين وحدهم، ولا الماديين وحدهم ـ انه تراث التوازن بين المثالية والواقعية، بين الروحية والمادية، بين الفردية والجماعية. فهو في أسسه وأصوله يمثل وسطية الإسلام.

هـ ـ التنوع: فهو تراث ديني ودنيوي، فقهي وصوفي، علمي وأدبي، فلسفي وتطبيقي، وفني وعمراني، نجد فيه فقه الشافعي، ورواية البخاري، وتفسير الطبري، وكلام الأشعري، ومعجم الخليل، ونحو سيبويه، وأدب الجاحظ، وشعر المتنبي، وفلسفة ابن رشد، وتصوف الغزالي، وطب ابن سينا، وفيزياء ابن الهيثم، وألحان الموصلي، وخط ابن مقلة، وتحليل ابن خلدون، جنباً إلى جنب.

و ـ التسامح: فهو وإن كان تراثاً إسلامياً ـ أنتجته العقول الإسلامية بدوافع إسلامية، على أرض إسلامية ـ يتسع لكل الأديان، ويؤمن بكل الكتب التي أنزلها الله، وبكل الرسل الذين بعثهم الله. كما يؤمن بأن اختلاف الناس واقع بإرادة الله، وسيحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون. ولا غرو أن شاركت فيه فئات من غير المسلمين، وسعتهم دار الإسلام، وحضارة الإسلام.

ز ـ المرونة: فهو ـ برغم أصوله الدينية، وجذوره الأخلاقية ـ قادر على مواجهة التطور، وفيه من الثراء والخصوبة الداخلية ما يجعله صالحاً للنماء والتجدد الذاتي ـ جامعاً بين الثبات على الأصول والغايات، والمرونة في الفروع والوسائل.

نحن والتراث:

وأحب أن أبين هنا أننا ـ نحن دعاة الحل الإسلامي ـ لا ندعو إلى تقديس التراث كله، وأخذه بعُجَره وبُجَره، وصوابه وخطئه، ولهذا كان لا بد لنا من تحديد معنى «التراث».

فكلمة «التراث» تشمل مجالين أو مستويين يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً كلياً وجذرياً.

المستوى المعصوم من التراث:

المستوى الأول: ما كان مصدره الوحي الإلهي متمثلاً في القرآن الكريم الذي «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» وفيما ثبتت صحته من سنة النبي ﷺ التي هي البيان النظري والتطبيق العملي للقرآن.

ونعني بهذا المجال، ما كان قطعي الثبوت والدلالة من كتاب الله وسنة رسوله، ولا مجال فيه لاجتهاد أو تفسير. ولذا يعتبر رفضه رفضاً للدين نفسه وكان التمرد عليه تمرداً على شرع الله جل شأنه.

فهذا لا يسعنا إلا أن نذعن له، وننقاد إلى حكمه، راضين مسلّمين، بمقتضى عقد الإيمان، وحكم الإسلام، وليس لنا أمامه خيار، إلا إذا راجعنا أصل الإيمان ذاته.

وهذا ما يؤكده القرآن بصراحة وقوة في الكثير من آياته. لنقرأ هذه الآيات:

﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخِيَرَة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً﴾ (سورة الأحزاب: ٣٦).

﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا: سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾ (سورة النور: ٥١).

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً ممَّا قضيت ويسلِّموا تسليماً﴾ (سورة النساء: ٦٥).

وهذا الجانب من التراث هو الذي يمثل فلسفة النظام، وأساس مشروعيته العليا، ويحدد إطاره وأسسه العامة، واتجاهاته الأساسية في مختلف جوانب الحياة.

وتسمية هذا الجانب (تراثاً) من باب التساهل والاتساع في التعبير. وإلاَّ، فإن الإسلام ليس تراثاً ولا ماضياً، إنه الماضي والحاضر والمستقبل، وهو رسالة الله العامة الخالدة التي تخاطب الإنسان وتهديه في كل زمان ومكان.

المستوى البشري من التراث:

والمستوى الآخر من التراث هو المستوى البشري، وهو يمثل عمل العقل الإنساني في فهم الجانب الإلهي المعصوم من التراث، وفي شرحه وتفسيره، والاستنباط منه، وفي تطبيقه وتنفيذه، وفي شتى جوانب الحياة العقلية والأدبية والحضارية، وهذا المستوى يضم كل علوم الدين من التفسير وعلوم القرآن وعلوم الحديث والفقه وأصوله، وعلم التوحيد، والتصوف. . . فهذا الجانب من التراث له أهميته ومكانته الخاصة لاتصاله بعقيدة الأمة، وسر وجودها، ووحي الله إليها. كما يشمل علوم العربية وآدابها وهي خادمة لعلوم الدين ووسيلة لفهمها.

ويشمل أيضاً العلوم العقلية وما يتعلق بها، والعلوم الكونية من الطب والكيمياء والفيزياء والرياضيات ونحوها. والعلوم المتعلقة بالفن والجمال والتعبير عنه.

فهذه كلها على تفاوت مراتبها ـ تراث إسلامي، وهي ـ على كل حال ـ إنتاج عقول لم تضمن لها العصمة من خالقها، ففيها الصواب والخطأ، وفيها الحق والباطل، وفيها الجد والهزل، وفيها الثمين والغث.

ضرورة الانتقاء:

وموقفنا هنا هو موقف الانتقاء والاختيار. وهذا يعني قبول التراث ـ وبخاصة ما يتعلق بالدين والعربية منه ـ في جملته لا في تفصيلاته، في مجموعه لا في جميعه، وبعد هذا القبول والتسليم العام تبدأ عملية الانتقاء والاختيار.

والانتقاء هنا ليس عملاً عشوائياً تأتي به المصادفات، والاختيار ليس اختيار

تشـهّ أو هوى ، تحكمه الانفعالات العاطفية أو المواقف الشخصيّة، بل هو عمل عقلي يستند إلى موازين علمية وإلى أدلة من أصول الشرع، ومصالح الأمة، وحاجات العصر.

وليس من حق أحد ولا فئة ولا مدرسة أن تفرض علينا فكرة أو رأياً أو حكماً معيّناً مما حفل به التراث الغني، وأن تضرب بغيره عرض الحائط.

فموقف كل عالم أو مفكر هنا هو موقف أبي حنيفة رضي الله عنه حين قال في شأن من سبقه ومن عاصره من علماء التابعين: هم رجال ونحن رجال!.

وهو موقف ابن القيم رحمه الله حين شرح رسالة شيخ الإسلام إسماعيل الهروي الأنصاري في التصوف «منازل السائرين إلى مقامات إيّاك نعبد وإيّاك نستعين» وكان الهروي حنبلياً موافقاً لابن القيم في مشربه السلفي في الأسماء والصفات، ولكنه خالفه وانتقده في جملة مواضع من كتابه «مدارج السالكين» فلما سئل في ذلك قال: شيخ الإسلام حبيب إلينا، ولكن الحق أحب إلينا منه!!.

قد يكون هذا الرأي الذي نتبناه لإمام مشهور أو لعالم مغمور، فلن تزيده شهرة الأول، ولا ينقصه خمول الأخر، وقد قال الإمام علي رضي الله عنه: لا تعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله.

وقد يكون هذا الرأي الذي ننتقي ونختار من الآراء المهجورة، مما طوته بطون الكتب، ومما اعتُبِر في عصره شاذاً أو متروكاً. فلا جناح علينا أن ننشر المهجور، ونحيي المقبور.

فرب ملابسات جدت، ووقائع نزلت، وأعراف تغيرت، جعلت الضعيف يقوى، والمتروك يظهر، والشاذ يصبح هو الموافق والملائم.

وهاهو شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه: ابن القيم وابن عبد الهادي وغيرهما يحيون آراء في فقه الشريعة ـ وخصوصاً في الطلاق وشؤون الأسرة ـ

كانت تعد قبلهم شاذة، وقد هجرت حتى ماتت، فما زالوا يجادلون عنها باللسان والقلم: في دروسهم وفي كتبهم ورسائلهم، وفتاويهم، حتى حييت بعد موات، واستعلنت بعد اختفاء.

وقد اتهم العلماء المقلدون والجامدون الشيخ في زمنه بأنه خرج عن المذاهب الأربعة، وخرق الإجماع السابق، وكادوا له عند ذوي السلطة حتى أدخل السجن أكثر من مرة من أجل رأيه، ومات رضي الله عنه في سجنه.

وها نحن اليوم في كثير من أنحاء العالم الإسلامي نختار ما اختاره، ونرجح ما رجحه في عدم وقوع طلاق الغضبان، والطلاق الذي يراد به الحمل على شيء، أو المنع منه، وفي وقوع طلاق الثلاث بلفظ واحد أو في مجلس واحد طلقة واحدة، وغير ذلك من الاجتهادات والاختيارات.

ومن ثم ينبغي أن نبحث عن أجود الآراء، وأقوم الأفكار، وأصح المعلومات، وأجمل التعبيرات، حيثما وجدناها في تراثنا العريض.

عبقريات في عصور التخلف:

قد نجد الرأي الجيد، والفكرة الصالحة، والتعبير الجميل، في خير قرون هذه الأمة، في فجر الإسلام، في عصر الصحابة والتابعين لهم بإحسان، في العصر الأموي أو العباسي.. في العصور الذهبية للحضارة الإسلامية أو في عصور التخلف والركود ذاتها، على ما بها من علل وأمراض. فما من عصر من هذه العصور إلا طلعت في سمائه كواكب تضيء وتسطع وتبهر الأبصار. وصدق الحديث النبوي القائل: «مثل أمتي كالمطر، لا يدرى أوله خير أم الآخرة؟!»(1).

ومن ذا الذي يجهل مثل أبي إسحاق الشاطبي (ت٧٩٠هـ) وتجديده في أصول الفقه؟ وابن خلدون (ت٨٠٨هـ) وتجديده في فلسفة التاريخ والاجتماع؟، وابن الوزير (ت٨٤٠هـ) وتجديده في علوم العقيدة والسنة، وابن

(١) رواه الترمذي، وهو حديث حسن.

حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) وخدمته لعلوم الحديث والرجال، ووقوفه حكماً بين المذاهب؟ والسيوطي (ت٩١١هـ) وخدمته لعلوم الدين واللغة والتاريخ ودعـوته للاجتهاد المطلق؟ والدهلوي (ت١١٧٦هـ) وتجديده في الحديث والفقه وبيان أسرار الشريعة؟والصنعاني (ت١١٨٢هـ) صاحب «سبل السلام» واجتهاداته واستقلاله في الفقه واتباع الدليل والتفقه على القرآن والحديث؟ والشوكاني (ت١٢٥٥هـ) وتجديده في الفقه والأصول وبناء فقه قائم على الدليل لا على التقليد؟ وصديق حسن خان (ت١٣٠٧هـ) تلميذ كتب الشوكاني، والسائر على دربه في الاجتهاد والترجيح؟.

الحكمة ضالة المؤمن:

بل أقول: قد تكون الفكرة أو الحكمة أو الكلمة من شعر امرىء القيس، أو زهير ابن أبي سُلمى، أو عنترة العبسي، فلا يمنعنا أن نتمثل بها أنهم من أهل الجاهلية، فالجاهلي قد يوفق فينطق بالحكمة، كما أن المسلم قد يزيغ فيتكلم بالباطل. والنبي ﷺ قال: «أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد:

«ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل!»

وقد قالها في جاهليته قبل أن يسلم.

ومن منا لا يتمثل بقول امرىء القيس: وحسبك من غنى شبع وري!.

أو بقول زهير:

ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تُعلَمِ

أو بقول السموأل، وهو يهودي جاهلي:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل

وأبو نواس على مجونه كم استشهد العلماء والمربون والمتصوفة بأبيات له، مثل قوله:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت
له من عدو في ثياب صديق
وما الناس إلا هالك وابن هالك
وذو نسب في الهالكين عريق

ومثل ذلك بشّار بن بُرد، على ما اتهم به من الزندقة، من ذا الذي لا يروي قوله:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى
ظمئت، وأي الناس تصفو مشاربه؟
ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها؟
كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه!

الاستفادة من كل المدارس الفكرية:

كما أحب أن أؤكد هنا: أن اختلاف المذاهب أو المدارس الفقهية أو الكلامية لا يمنع من الاستفادة مما عند الآخرين، فالحق لا يشتمل عليه مذهب واحد، ولا مدرسة واحدة.

وخطأ إنسان في ناحية لا يعني إلغاء نواحيه الإيجابية الأخرى.

وقد رأينا علماء أهل السنة جميعها يستفيدون من «تفسير الكشاف» للزمخشري، وينقلون عنه وهو معتزلي صريح في اعتزاله، ولا يدع مناسبة يؤيد فيها مذهبه إلاّ فعل. ومع هذا أخذ منه كل من بعده من المفسرين: الرازي والبيضاوي والنسفي وغيرهم.

ولم يمنعهم ذلك أن يردوا عليه أو يتعقبوه في مؤلفاتهم «التفسيرية» أو غيرها أو في مؤلف خاص كما فعل ابن المنيّر في كتابه «الانتصاف من الكشاف»

وهو مطبوع على هامش الكشاف.

وابن حجر خرج أحاديثه وبين مقبولها من مردودها في كتاب سماه «الكافي الشاف في تخريج الكشاف» وقد سبقه إلى ذلك العلامة جمال الدين الزيلعي صاحب (نصب الراية لأحاديث الهداية).

وابن تيمية وابن القيم استفادا من بعض ما كتبه المعتزلة في الحسن والقبح وأفعال العباد ونحوها. وأخذا ببعضه، ولم يسلما بكل ما قاله الأشاعرة هنا، بل أخذوا منهم وردوا عليهم.

وفي هذا المعنى يقول ابن القيم:

«وأرباب هذه المذاهب مع كل طائفة منهم خطأ وصواب. وبعضهم أقرب إلى الصواب وبعضهم أقرب إلى الخطأ، وأدلة كل منهم وحججه، إنما تنهض على بطلان خطأ الطائفة الأخرى، لا على إبطال ما أصابوا فيه... وأهل السنة وحزب الرسول، لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، بل هم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه، وهم مع أولئك فيما أصابوا فيه. فكل حق مع طائفة، فهم يوافقونهم فيه، وهم براء من باطلهم... فمذهبهم جمع حق الطوائف بعضه على بعض، والقول به ونصره... ونفي باطل كل طائفة وكسره... الخ[1]. أ. هـ.

إحياء التراث:

وهذا يقتضي منا أن نعمل على إحياء التراث، ونشر كنوزه نشراً علمياً عصرياً محققاً يقرب الانتفاع به، والاقتباس منه، وألا ندعه مطموساً مبعثراً في مكتبات الغرب والشرق، على حين نفتش على فلسفات وآداب عند هؤلاء وأولئك مما نبت في أرض غير أرضنا لقوم غير قومنا.

والأولى لمن يملك رصيداً في مصرف أن ينفق منه أولاً قبل أن يمد يده إلى غيره يسأله صدقة أو هبة أو قرضاً!.

---

(١) من كتاب ابن القيم (شفاء العليل في مسائل القدر والحكمة والتعليل).

ولا يكفي أن نقف عند نشره وتحقيقه ثم التغني به والمباهاة بأصالته، بل لا بد أن نحلله وندرسه دراسة الفاحص الناقد، حتى نكشف عن جواهره، ونستخرج روائعه، ونستفيد من إيجابياته، ونتفادى سلبياته.

ولا بد لنا أن نبني عليه، ونضيف إليه، ونضفي عليه من روحنا، مما صنعته عقولنا، مما عملته أيدينا، حتى يعبر عنا، ويلبس ثوب عصرنا، ويتجاوب مع حياتنا، مع زماننا ومكاننا وحالنا.

وبهذا نجمع بين الأصالة والمعاصرة حقاً. فلا نبخس الماضي ولا نجور على الحاضر. فهل ينقم علينا منصف هذا الموقف من تراثنا؟ أم يراد منا ـ لكي نكون عصريين ـ أن نهيل التراب على الماضي بكل ما فيه، ونبدأ من جديد، من الصفر، بحجة أننا نعيش مع الأحياء لا مع الأموات؟.

فليت شعري هل تموت الأفكار بموت أصحابها؟ إن الأشخاص يموتون، ولكن أفكارهم لا تموت، ورب فكرة مضت عليها آلاف السنين يأتي من يحييها ويحيي بها أمة بأسرها. ولولا أن اللاحق يكمل ما بدأه السابق، ويبني على ما أسّسه، ما تقدّمت العلوم، ولا ارتقى العمران، ولا علا صرح الحضارة.

والذين يقولون: دعونا من الأموات لا يفتؤون يتحدثون عن أموات آخرين مثل ماركس وانجلز، أو فولتير وروسو، أو ديكارت وكانت، أو شكسبير وهوجو، بل عن سقراط وأفلاطون وأرسطو، ويعتبرون أنفسهم مع هذا معاصرين ومجددين!.

بين القديم والحديث:

ولا بد لنا من كلمة هنا حول ما سمي «القديم» و«الحديث» وموقف الناس منهما... ما القديم؟ وما الحديث؟ وما القدم؟ وما الحداثة؟ ولماذا يرفض بعض الناس القديم لمجرد قدمه؟ ولماذا يتعلق آخرون بالحديث ويدعون إليه لمجرد حداثته؟؟.

والواقع أن قضية القديم والحديث والمفاضلة بينهما قضية شغلت الناس

منذ زمن بعيد. فمن الناس من يستمسك بالقديم ويعتز به ولا يحيد عنه، ولا يفرط فيه، كأنه يرى فيه أصوله وجذوره الممتدة. ومنهم من يعشق الحديث ـ أي حديث ـ ويباهي به ولا يرضى به بديلاً، كأنما يرى فيه فروعه وثماره.

تعظيم السابقين للقديم:

ولقد كان الناس منذ عدة قرون يمجدون القديم، ويباهون به، فالقديم في نظرهم يعني الأصالة والعراقة والمجد، والقدماء هم السابقون إلى كل خير، المتفوقون في كل فن... والمتأخرون عالة عليهم، سواء في العلم أو الأدب أو الفن. وفي الشعر قرأنا قولهم:

ما أرانا نقول إلا معاراً
أو معاداً من قولنا مكروراً!

أما الحديث فكان في حاجة إلى أن يثبت وجوده حتى يعترف له بمجاراة القديم. وكان النوابغ والعباقرة يحاولون ـ بشتى الوسائل ـ بأن يبرروا نبوغهم ـ كما كان الأوائل قبلهم، وإن تأخر بهم الزمن عنهم. وخصوصاً بعد ما شاع قول بعضهم: ما ترك الأول للآخر شيئاً! وأنشد بعضهم:

أو ما ترى أن النبي محمداً
فاق البرية وهو آخر مرسل؟!

وأبو العلاء حينما قال في «لاميته» بيته المشهور:

وإني ـ وإن كنت الأخير زمانه ـ
لآت بما لم تستطعه الأوائل!

كان ينفي وهماً شائعاً، بل اعتقاداً راسخاً، بأن الأواخر لا يمكنهم أن يفوقوا الأوائل، وأن الجديد عالة دائماً على القديم. بل كلامه يدل بوضوح على أن الشاعر الفيلسوف نفسه يؤمن بأن هذا هو الأصل والقاعدة، فهو يرى أن المتأخر في الزمان لا يستطيع أن يجاري الأوائل و يتفوق عليهم، إلا إذا

كان ذلك من باب الفلتات والخوارق، فهو نفسه جاء شاذاً عن القواعد، خارقاً للعوائد، وهذا ما توحي به الجملة الاعتراضية في البيت: «وإن كنت الأخير زمانه». ولعل ذلك لارتباط القديم حينئذ بعصر النبوة وعهد الراشدين، وامتداد الإسلام، وازدهار حضارته، وظهور الأئمة الكبار، ونبوغ العباقرة الأفذاذ في كل علم وفن، وتفرّد الأمة الإسلاميّة بالتربع على القمة لعدة قرون.

على حين كان المتأخرون الذين برز نبوغهم، وظهر تفوقهم، في مجالاتهم العلمية والدينية والأدبية ينتسبون إلى عصور التخلف والانحطاط، تلك العصور التي فقدت الاجتهاد في الشريعة، والإبداع في العلم، والأصالة في الأدب، والابتكار في شتى نواحي الحياة!.

وهذا ما جعل نوابغ المتأخرين في العصور الإسلامية يحاولون أن يقيموا الأدلة لقرائهم من معاصريهم ومن بعدهم ـ على أن تأخر زمانهم لا يعني حرمانهم من الفضل الذي أحرزه السابقون من قبلهم!.

نقرأ في خطبة (القاموس) للعلامة الفيروز آبادي هذا المعنى في قوله:

«ولكني أقول كما قال أبو العباس المبرد في (الكامل) وهو القائل المحق: ليس لقدم العهد يفضل الفائل (أي المخطىء) ولا لحدثانه يهتضم المصيب، ولكن يعطى كل ما يستحق».

قال العلاّمة الزبيدي شارحه:

ومثل هذا الكلام في خطبة (التسهيل) ما نصه: وإذا كانت العلوم منحاً إلهية ومواهب اختصاصية، فغير مستبعد أن يدخر لبعض المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين. قال الزبيدي: والمعنى: أن تقدم الزمان وتأخره ليست له فضيلة في نفسه، لأن الأزمان كلها متساوية، وإنما المعتبر الرجال الموجودون في تلك الأزمان. فالمصيب في رأيه ونقله ونقده لا يضره تأخر زمانه الذي أظهره الله فيه، والمخطىء الفاسد الرأي، الفاسد الفهم، لا ينفعه تقدم زمانه. وإنما المعاصرة كما قيل حجاب، والتقليد المحض وبال على صاحبه وعذاب.

أنشدنا شيخنا الأديب: عبد الله بن عبد الله بن سلامة المؤذن:

قل لمن لا يرى المعاصر شيئاً
ويرى للأوائل التقديما
إن ذاك القديم كان حديثاً
وسيمسي هذا الحديث قديماً!

وأنشدني أيضاً لابن رشيق:

أولع الناس بامتداح القديم
وبذم الجديد غير الذميم
ليس إلا لأنهم حسدوا الحي
ورقّوا على العظام الرميم!

وأنشدني أيضاً:

ترى الفتى ينكر فضل الفتى
خبثاً ولؤماً فإذا ما ذهب
لج به الحرص على نكتة
يكتبها عنه بماء الذهب!

والمراد من ذلك كله النظر بعين الإنصاف من المعاصرين وغيرهم، فإن الإخلاص والإنصاف هو المقصود من العلم[1].

وهكذا كان (القديم) هو المنظور إليه بعين الإكبار والتعظيم وكان (الحديث) أو (الجديد) أو (المتأخر) أو (المعاصر) يجهد كل الجهد كي يقدم المبررات لإثبات وجوده.

ظاهرة التعظيم للحديث:

أما ظاهرة التعظيم للحديث والتشبث به، واعتقاد صلاحه ونفعه، والنفور

(١) من مقدمة (تاج العروس) في شرح خطبة صاحب (القاموس).

من القـديم، والـدعـوة إلى الإعـراض عنـه، فهي ظاهرة جديدة في الأمة الإسلامية. وهي ثمرة من ثمرات الاستعمار والتأثر بالفكر الغربي، وبالحضارة الغربية.

ومما أيد هذه النزعة إلى تعظيم الحديث، واحتقار القديم، عدة أشياء:

١ ـ أن الحضـارة الغربية الوافدة كانت في أوج مجدها، وقمة انتصاراتها، عسكرياً وسياسياً وعلمياً، وقد غلبت على العالم كله تقريباً، ومنه العالم الإسلامي. وهي ترفع شعارات براقة جذابة مثل الحرية والإخاء والمساواة.

فكانت هي الحديث الذي فتن به من فُتن من أبناء المسلمين، وولعوا بمحاكاته، ولع المغلوب بتقليد الغالب، كما قال ابن خلدون.

٢ ـ أن حضارتنا كانت في عصر أفولها وإدبارها، وكان قديمنا ـ عند صدمة اللقاء بالحضارة الغربية المنتصرة ـ موسوماً في أذهان الكثيرين بالتخلف والجهل والضعف والتمزق، وفقدان الإبداع في كل المجالات.

٣ ـ أن كنوز القديم وجواهره النفيسة كانت مطمورة مجهولة لأهله أنفسهم. على حين كان الحديث ظاهراً، بيِّن المعالم، واضح الحدود. وما عرض من هذا القديم فقد كان عرضه في صورة منفرة، وفي أوعية تنكرها الأنفس والعقول.

٤ ـ أن نظم التعليم الجديدة بفلسفتها، ومناهجها، وكتبها، وروحها كانت تغرس في الأجيال المتعلمة حب الجديد، وهو يعني الحضارة الغربية، والنفور من القديم، وهو يعني تراث الإسلام. هذا إلى من يبعثون إلى الغرب لينهوا دراستهم هناك. وبعبارة أخرى: ليصنعوا على أعين السادة المخططين والموجهين!.

القدم والحداثة لا علاقة لهما بقيمة الأشياء:

وأود أن أقرر هنا أن الزمن لا صلة له في ذاته بقيمة الأشياء، أعني أنه سواء تقدم أم تأخر، لا علاقة له بصواب الأشياء أو خطئها ولا بحقّيتها أو بطلانها. فكم من جديد كله صواب وحق، وكم من قديم كله خطأ وباطل، والعكس صحيح أيضاً.

المسلم لا يتبنّى القديم لمجرد قدمه، كما لا يرفض الجديد أو الحديث لمجرد جدته وحداثته... ولا العكس.

وقد ظهر الإسلام في وقت كان عشاق القديم ودعاته هم أول المناوئين للإسلام **﴿وإذا قيل لهم: اتبعوا ما أنزل الله قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾** (سورة البقرة: ١٧٠).

بل كان هذا هو موقف الملأ والمترفين في كل زمان من أنبيائهم، فهم يرفضون دعوة التوحيد والعدل والإصلاح، بحجة مخالفة ما كان عليه الآباء.

ولهذا يجب أن تقوّم الأمور تقويماً موضوعياً بغض النظر عن قدمها أو جدّتها.

فإذا قال بعض الناس: كيف يجوز للإنسان في القرن العشرين ـ القرن الذي صنع «الكومبيوتر» والذي حطم الذرة، وغزا الفضاء. ونجح في الصعود إلى الكواكب ـ أن يحكم في حياته منهجاً مضى عليه أربعة عشر قرناً من الزمان؟؟ كيف يجوز لنا أن نرجع القهقرى هذه القرون كلها، لنتتلمذ على محمد ـ ﷺ ـ أو نقتبس من أبي بكر وعمر، أو نأخذ عن مالك وأبي حنيفة وغيرهما؟؟.

إن الالتزام بمثل هذا المنهج العتيق هو «الرجعية» التي تعارض التقدم وتؤخرنا إلى الوراء أربعة عشر قرناً من الزمان!.

إن الإنسان الراقي هو الذي ينظر إلى الأمام وليس هو الذي ينظر إلى الوراء.

إن التطور هو سنة الحياة كلها، والأحياء جميعاً. وقانون التطور يسري على الأمم والجماعات كما يسري على الأفراد، وهو حتم لازم شاء المرء أو أبى.

فلا بد أن نساير التطور ونجاريه حتى لا يغلبنا وتسحقنا عجلاته الجبارة.

إذا كان بعض الناس يقولون مثل هذا الكلام، فنحن نرد عليهم بمنطق أقوى من منطقهم، ونقول لهم: «إن الرجوع أربعة عشر قرناً إلى الوراء للاهتداء بوحي الله الكريم والتتلمذ على رسوله العظيم، والسير على سنة خلفائه الراشدين المهديين، هو في الحقيقة تقدم إنساني رائع، تقدم في الأفكار والمشاعر، وتقدم في القيم والأخلاق، وتقدم في الآداب والتقاليد. تقدم تحلم به الإنسانية الراشدة، وإن لم يتح لها اليوم فرصة تحقيقه والوصول إليه.

وإن من الحمق الذي لا يليق بالإنسان العاقل: أن يرفض الشيء، لا لعيب إلا أنه قديم، وأن يرحب بشيء لا لمزية، إلا أنه جديد.

ولقد عرفنا وعرف الناس قبلنا ـ بالمنطق والتجربة ـ أنه ليس كل قديم سيئاً، ولا كل جديد حسناً. فكم من قديم فيه أكبر المنافع، وكم من جديد يحمل أكبر المضار. وهل عاب الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار أنها قديمة، وأن عمرها يقدر بالملايين من السنين؟!.

القدم والحداثة نسبيان:

على أن القدم والحداثة أمران نسبيان، فرب حديث عند قوم، يعد قديماً كل القدم عند آخرين، وكم من شيء يعده الناس في عصر ما جديداً كل الجدة، فإذا تعمقوا في الدراسة وجدوه أمراً قديماً عتيقاً، عرفته الأمم البدائية منذ أقدم العصور، كالإباحية التي يحسبها بعض الناس من ثمرات هذا العصر، عصر الحرية والنور كما يزعمون. وهي لا تزال من سمات القبائل البدائية، والشعوب الهمجية إلى اليوم.

هذا إلى أن الحديث لا يبقى أبداً حديثاً، والقديم لم يكن من قبل قديماً، فقديم اليوم كان حديث الأمس، وحديث اليوم سيصبح قديماً غداً، فإذا كان القدم يسلب الأشياء الحسنة حسنها، وكانت الجدة أو الحداثة وحدها مصدر الحسن والنفع والخير، فمعنى ذلك أننا عدنا «سوفسطائيين» نرى أن الأشياء ليس لها حقائق ثابتة، وأن القيم ليس لها ثبات ولا خلود، ومعنى ذلك: أن مرور الزمن وحده هو الحكم على الأشياء فهو الذي يجعل الحق باطلاً، والمعروف منكراً. وهذا ما يرفضه العقل والعلم والدين جميعاً.

الغلو في التحديث مرفوض:

لهذا وقف أولو الألباب في العالم الإسلامي كله ضد الغلاة من دعاة التحديث أو التجديد ـ الثائرين على كل قديم، المنسلخين من كل تراث ـ وقفة المنكر الناقد، والساخط المعارض، وسخر منهم أديب العربية والإسلام مصطفى صادق الرافعي بأنهم يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر!!.

وقال أمير الشعراء شوقي في قصيدته عن الأزهر:

لا تحــذ حذو عصــابـة مفتـونـة
يجــدون كل قديم أمــراً منكــرا
ولو استطاعوا في المجامع أنكروا
من مات من آبــائهم أو عُمّــرا!
من كل ساع في القـديم وهـدمه
وإذا تقــدم للبــنــاية قصــرا!

وسخر الفيلسوف الشاعر محمد إقبال من دعوة «كمال أتاتورك» للتجديد، ورماه بالانصياع والتقليد للغرب، واعتبره محروماً من كل أصالة وإبداع، فقال على لسان بعض الشخصيات: «إن «كمال» تغنى بالتجديد في تركيا، ودعا إلى محو كل أثر قديم، وتراث قديم، ولكنه جهل أن الكعبة لا تجدد، ولا

تعود إلى الحياة والنشاط إذا جلبت لها من أوربا أصنام جديدة! إن زعيم تركيا لا يملك اليوم أغنية جديدة، إنما هي كلها أغان مرددة معادة، تتغنى بها أوربا من زمان! إن الجديد عنده هو القديم الأوروبي الذي أكل عليه الدهر وشرب! ليس في صدره نفس جديد، وليس في نفسه عالم حديث، فاضطر إلى أن يتجاوب مع العالم الأوروبي المعاصر. إنه لم يستطع أن يقاوم وهج العالم الحديث، فذاب مثل الشمعة وفقد شخصيته».

إن «التقدميين» قوم يزعمون أنهم ينظرون دوماً إلى الأمام ولا ينظرون ساعة إلى الوراء، ينظرون إلى المستقبل، ولا ينظرون إلى الماضي، كأنّ النظر إلى الماضي سبة يبرأ منها، وما الماضي؟ إنه كان بالأمس حاضراً حياً ماثلاً، وكان من قبل أمس مستقبلاً مرجوا، وغداً مرتقباً.

إن الله الذي خلق الإنسان ومنحه خيالاً يحلق به في استشفاف غده، جعل له ذاكرة يستوعب فيها أمسه، فلماذا نطلب من الإنسان أن يتطلع إلى غده فقط، وننكر عليه أن يتصل بأمسه؟ لماذا نريد من المجتمع أن يفقد ذاكرته. مع أننا نعد الفرد المصاب بفقد الذاكرة مريضاً مبتلى محتاجاً إلى العلاج؟!.

إن الإنسان يولد وهو يحمل في دمه خصائص أسرته وفصيلته، فضلاً عن خصائص نوعه ـ بحكم قوانين الوراثة ـ ومعنى هذا أنه منذ يولد يحمل في إهابه شيئاً غير قليل من الماضي. ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها**﴾ ولولا هذا الماضي لكان مادة غفلاً لا ترتقي إلى مستوى الكائن الحي العاقل المفكر.

فلماذا نريد من الإنسان أن ينسلخ من ماضيه وتراثه إذا أراد أن يرسم لنفسه حدود سلوكه ويحدد منهج حياته.

يقول الكاتب الكبير الأستاذ عباس العقاد رحمه الله في الفرق بين الاتجاه الطبيعي في الأدب، الذي يحافظ على الماضي، ويبني عليه، والاتجاه المصطنع الذي ينفصل عن الماضي كل الانفصال:

«إن الفرق بينهما (أي الطبيعي والصناعي) لا يخفى على ناظر يريد أن ينظر؛ لأن الكائنات الطبيعية التي تنمو أمامنا نمواً طبيعياً، أكثر من أن تحصى.

«إن البنية الحية تقوم على كيان مستمر لا ينقطع عن ماضيه، ولا ينفصل عن أصوله وموروثاته، ولا تزال كل خلية حافظة لسجل الحياة في عصوره الماضية آلافاً من السنين يظهر منها ما يظهر، ويستتر منها ما يستتر.

«ومن علامات البنية الحية أيضاً: أن تتغير على حسب الظروف، وأن تشتمل على قدرة متجددة، تتمكن بها من التوفيق بينها وبين ما حولها، ولا تستقر فيه استقرار الجماد... ولكنها تتغير لتبقى، ولا تبقى لتمحو وجودها في هذا التغيير.

«ولنضرب لذلك شجرة القطن مثلاً، ونضرب لها ما شئنا من الأشجار مثلاً بالقياس عليها...

«فإن شجرة القطن تتغير حسب المنبت، وعلى حسب الوسائل الزراعية، وعلى حسب العناية بتطبيق هذه الوسائل، ولكنها تبقى «قطناً» بعد هذا التغيير، ولا تزول منها هذه الصفة الأصيلة إلا إذا آذنت كلها بالزوال...

«وعلى هذا المثل يقاس الاتجاه الطبيعي في كل بنية حية».

والمسلم مثل شجرة القطن هذه، إنه قد يتحول من حياة زراعية إلى حياة صناعية، وقد ينتقل من البداوة إلى الحضارة، وقد يمتطي الطائرة بعد أن كان يركب البعير، ولكنه ـ مع هذا التغيير ـ يبقى مسلماً، يؤمن باليوم الآخر، ويتمسك بمكارم الأخلاق، ويقيم شعائر الله، ويحتكم إلى ما شرع الله، وينتفع بتراث السابقين من الأئمة المهديين.

ويقول الدكتور محمد إقبال في بحث له:

«لا تنس أن الحياة ليست تقلباً وتطوراً فحسب، فإنما توجد فيها عوامل البقاء والدوام كذلك وذلك هو السر في أن الإنسان ـ رغم عمله المنتج المبتكر

والمستمر، وعكوفه الطويل على كشف طاقات الكون المبعثرة، والاطلاع على آفاقه الجديدة، وأجوائه الفسيحة ـ لا يزال يشعر باضطراب دفين، وقلق يساوره في كل حين. إنه يضطر إلى النظر فيما يراه خلال تقدمه، أو خلال رحلته، كأنه خائف يترقب، ويخجل من مواجهة عالمه الفسيح المترامي الأطراف. ويمكن أن نقول في عبارة أخرى: أن الحياة تحمل عبء الماضي دائماً على أكتافها، ولا تستطيع أن تتخلى عنه في أي حال من أحوالها، ولذلك لا ينبغي لأي نظرية من نظريات الاجتماع والعمران أن تزدري قيمة القديم، وطاقاته وإنتاجه وتأثيره، كما يجب على العقلية الحديثة أن تنظر إلى تعاليم القرآن الأصيلة في ضوء هذه البصيرة النافذة والفراسة البعيدة، ثم تحاول فهم مؤسساتنا وجهودنا على هذا الأساس.

«إنه لا يمكن لأي شعب أن يرفض ماضيه رفضاً باتاً؛ لأن الماضي هو الذي يعرف به شخصيته وذاتيته... إن استعراض المؤسسات القديمة وكشفها من جديد في المجتمع الإسلامي عملية دقيقة خطيرة أكثر مما هي في المجتمعات الأخرى، ولذلك تتضاعف في هذه الناحية مسؤولية المصلحين، ورجال الفكر، إن الاسلام بالنظر إلى خصائصه وسماته «غير محلي» وهو يهدف إلى إيجاد نموذج كريم للوحدة والانسجام تلتقي فيه سائر الأجناس والألوان ويختلط بعضها ببعض، ثم تطوير هذه الذرات المبعثرة في الآفاق إلى «ملة» تدرك ذاتها وتعي شخصيتها... إن هذا العمل كان عسيراً شاقاً، ولكن الإسلام نجح في تكوين إرادة اجتماعية وضمير اجتماعي خاص بين هذه الأكوام من الشعارات والألوان. إن آداب الأكل والشرب، وشؤون النجاسة والطهارة وما ماثلها من القوانين الاجتماعية المدنية التي لا تتبدل ولا تتغير في مجتمع الإسلام، لها قيمة حياتية (حيوية) خاصة، وذلك لأن هذه القوانين والآداب تمنح المجتمع «داخلية» أو «ذاتية» من نوع خاص، وتوفق بين جوهره وملامحه، وداخله وخارجه، توفيقاً رائعاً جميلاً.

«ولذلك فيجب على هؤلاء الذين ينتقدون هذه المؤسسات أن يحاولوا

إدراك كُنْه الجهاز الاجتماعي للإسلام وأسراره، قبل أن يرتجلوا في الكلام عنه، أنه يجب عليهم أن يفكروا في صنع تلك المؤسسات وهيئته في إطار هدف أوسع لا في إطار مصلحة اجتماعية محدودة، لشعب خاص محدود[1].

حقيقتان لا بد من التنبيه عليهما:

وهناك حقيقتان أود أن أنبه عليهما:

الحقيقة الأولى:

أن الغـربيين معـذورون حين ينكـرون ماضيهم، ويشنون الغارة على قديمهم، وينفرون من كل دعوة تتضمن الرجعة إليه. ذلك لأن الماضي الذي سبق حاضرهم وتقدم نهضتهم ـ ماض عفن خرب، ليس فيه إلا المناوأة للعلم، والحجر على الفكر، وتحريق العلماء والمفكرين، ليس فيه عدالة ولا تكافل، ليس فيه للإنسان حقوق ترعى، ولا أخوة يعترف بها، وليس فيه إلا طبقية صارخة، وأرستقراطية مستكبرة، وإقطاع متسلط، وحكم ظالم، وكنيسة تبارك كل هذا الظلم والظلام، وتؤيده باسم الدين وباسم الله والمسيح.

فمن دعا إلى تحكيم الدين عندهم في شؤون الحياة، فمعناه أنه يعود بالناس إلى الوراء، إلى الجهل، إلى التخلف، إلى التعصب المغلق، إلى التقليد الأعمى، إلى الإقطاع، إلى الطبقية، إلى حكم الفرد المُطلق، إلى تسليم الزمام لرجال الكهنوت، إلى محاكم التفتيش، والوقوف في وجه العلم والفكر والحرية.

أما نحن فالأمر عكس ذلك تماماً: إن ديننا غير دينهم، ومجتمعنا غير مجتمعهم، وماضينا غير ماضيهم. **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾**.

(١) عن مقال للأستاذ خورشيد أحمد، وموضوعه «الصراع بين القدم والجديد في مجال القانون الإسلامي».. معرب عن الأوردية، العدد الثاني من المجلد الثاني عشر من مجلة «البعث الإسلامي» اكتوبر سنة ١٩٦٧ ولاستبانة جوانب هذا الموضوع، راجع كتاب «التطور والثبات في حياة البشرية» للأستاذ محمد قطب.

ينقل لنا الأستاذ فريد وجدي[1] عن «درايبر» الأستاذ بجامعة نيويورك من كتابه «النزاع بين العلم والدين» صفحات يقارن فيها بين تقدم المجتمع الإسلامي وتخلف المجتمع الأوربي حتى عصورهم الوسطى فيقول:

ولو أردنا أن نستقصي كل نتائج هذه الحركة العلمية العظمى. لخرجنا عن حدود هذا الكتاب فإنهم قد رقوا العلوم القديمة ترقية كثيرة جداً. وأوجدوا علوماً جديدة لم تكن معروفة قبلهم. والفلكيون من العرب قد اهتموا أيضاً بتحسين آلات الأرصاد وتهذيبها وبحساب الأزمنة بالساعات المختلفة الأشكال. والساعات المائية. والسطوح المدرجة الشمسية وهم أول من استعمل البندول (الرقاص) لهذا الغرض.

أما في العلوم التجريبية فقد اكتشفوا الكيمياء. وبعضاً من محللاتها الشهيرة (بحمض الكبريتيك) و (حمض النتريك) و(الكحول) وقد استخدم العرب علم الكيمياء في الطب لأنهم أول من نشر علم تحضير العلاجات، و(الأقرباذينات) واستخراج الجواهر المعدنية.

أما في علم (الميكانيكا) فإنهم عرفوا وحددوا قوانين سقوط الأجسام. وكانوا عارفين كل المعرفة بعلم الحركة.

أما في (الايدروستاتيك) فإنهم أول من عمل الجداول المبينة لضروب الأوزان النوعية وكتبوا أبحاثاً في الأجسام السابحة، والغائصة تحت الماء.

أما في نظريات (الضوء والإبصار) فقد غيروا الرأي اليوناني الذي بمقتضاه أن الإبصار يحصل بوصول شعاع من البصر إلى الجسم المرئي.

وقالوا بعكس ذلك أي أن الإبصار يحصل بوصول شعاع من المرئي إلى العين.

وكانوا يعرفون نظريات انعكاس الأشعة وانكسارها. وقد اكتشف الحسن بن

---

(١) في كتابه: (الإسلام دين عام خالد).

الهيثم الشكل المنحني الذي يأخذه الشعاع في سيره في الجو. وأثبت بذلك أننا نرى القمر والشمس قبل أن يظهرا حقيقة في الأفق. وكذلك نراهما في الغروب بعد أن يغيبا بقليل. إن نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جلياً في التقدم الباهر الذي نالته الصنائع في عصرهم. فقد استفادت منها فنون الزراعة في أساليب الري والتسميد وتربية الحيوانات. ومن النظامات الزراعية الحكيمة. وإدخال زراعة الأرز والسكر والبن وقد انتشرت المعامل والصنائع لكل نوع من أنواع المنسوجات كالصوف والحرير والقطن. وكانوا يذيبون المعادن. ويجرون في عملها على ما حسنوه وهذبوه من صنعها وسبكها.

وإننا لندهش حين نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم في هذا العصر. من ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذي يعتبر مذهباً حديثاً كان يدرس في مدارسهم. وقد كانوا ذهبوا منه إلى مدى أبعد مما وصلنا إليه. وذلك بتطبيقه على الجمادات والمعادن أيضاً).

ثم ينتقل «درابير» إلى أوربا مقارناً بين النور والظلام: إن أوربا في ذلك العهد كانت غاصة بالغابات الكثيفة من إهمال الناس للزراعة. وكانت المستنقعات قد كثرت حوالي المدائن. فكانت تنتشر منها روائح قتالة اجتاحت الناس وأكلتهم، ولا مغيث لهم. وكانت البيوت في (باريز) و(لندن) تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب. ولم يكن فيها نوافذ ولا أرضيات خشبية. أما الأبسطة فكانت مجهولة لديهم. وكان يقوم مقامها القش ينشرونه على الأرض نشراً ولم يكونوا يعرفون المداخن فكان الدخان يطوف البيت ثم يتسرب من ثقب صنعوه له في السقف. فكان الناس في هذه البيوت معرضين لكل أنواع الإصابات الخطيرة. وكان الناس لا يعرفون معنى النظافة فيلقون بأحشاء الحيوانات وأقذار المطابخ أمام بيوتهم أكواماً أكواماً. تتصاعد منها روائح قاتلة. ولا رقيب ولا حسيب. وكانت الأسرة الواحدة تنام في حجرة واحدة من رجال ونساء وأطفال. وكثيراً ما كانوا يؤوون معهم الحيوانات المنزلية. وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من الصوف كمخدة. وكانت النظافة معدومة

لديهم لا يعرفون لها رسماً. وكان الغني منهم لا يأكل اللحم إلا كل أسبوع مرة. ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح. هـذه الجهالة كان من أثرها على أوربا أن عمتها الخرافات والأوهام. فانحصر التداوي في زيارة الأماكن المقدسة. ومات الطب. وأحييت أحابيل الدجالين. وقد كانوا إذا دهم البلاد وباء فزع رجال الدين إلى الصلاة. ولم يلتفتوا لأمر النظافة فكانت تفتك بهم الأوبئة فتكاً ذريعاً. حتى أنها زارت أوروبا عدة مرات. فاجتاحت الملايين من بين أهلها في أيام معدودة، وقد كان الموت في أوروبا في هذه العصور بنسبة واحد إلى ثلاثة وعشرين. فصار اليوم الواحد إلى أربعين ـ ثم قال: لم تكن أوروبا العصرية بأعلى ذوقاً ولا أرقى مدنية ولا ألطف رونقاً من عواصم الأندلس على عهد العرب».

الحقيقة الثانية:

إن الزعم القائل بأن المادية في التفكير، والشهوانية في السلوك، هي تقدم للإنسان وتطور به إلى الأمام، وأن القيم الروحية والخلقية رجوع به إلى الخلف ـ زعم يناقضه التفكير السليم والمنطق العلمي القويم.

فالواقع أن التفكير المادي الذي يرفض الإيمان بالغيب، ولا يؤمن إلا بالمحسات إنما هو تفكير بدائي مناسب لمرحلة الطفولة الإنسانية، فالطفل لا يعرف شيئاً، ولا يعترف بشيء غير ما يقع عليه سمعه وبصره وحواسه من الطعام والشراب والملبس واللعبة، وما يتصل بذلك، فإذا بلغ مرحلة المراهقة، اتسعت دائرة إدراكه فعرف بعض المعنويات والقيم. فإذا بلغ الرشد استطاع أن يدرك المعنويات الرفيعة من العلم والحب والرحمة والأخوة والإيثار ونحوها من القيم والمثل العليا. والإيمان بالله تعالى هو أرقى مراتب الرشد الإنساني، لأنه يمثل اتصال الإنسان بالكائن الأعلى، الذي **﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾**[1].

---

(١) سورة الأنعام: ١٠٣

وشهوانية السلوك ليست تقدماً بالإنسان أيضاً، إنما هي هبوط به إلى درك الحيوانية، فالإنسان مخلوق مركب من عقل وشهوة، فإذا غلب فيه عقله على شهوته ارتفع إلى أفق الملائكة. وإذا غلبت شهوته على عقله، نزل إلى حضيض البهيمية، فالبهيمة لا يحكم سلوكها غير شهوتها الغريزية. فإذا لم يتميز الإنسان عنها. مع ما أوتيه من العقل. كان أدنى درجة منها. وفي مثل هؤلاء يقول القرآن **﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه، أفأنت تكون عليه وكيلاً؟. أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون؟ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً﴾**[1].

يقول أستاذنا الدكتور محمد البهي في محاضرة[2] له عن مفهومي التقدم والرجعية:

«اتجاهان متقابلان: اتجاه إلى الأمام، واتجاه إلى الوراء، والإنسان يبتدىء في تطوره من نقطة الطفولة الإنسانية التي تشبه حيوانية الحيوان، وينتهي في هذا التطور إلى نقطة الرشد الإنساني وهو مستوى الإنسانية المهذب في السلوك، والدقيق في الحكم والتفكير. فما يدفعه إلى الرشد الإنساني فهو من عوامل التقدم، وما يشده إلى الطفولة الإنسانية فهو من عوامل الرجعية. وما يقف به عن الحركة نحو الأمام، أو إلى الوراء، فهو عامل الجمود.

وإذن ليس من مفهوم التقدمية أو التطور شد الإنسان إلى الحيوانية والتصرف الحيواني. وليس من مفهوم الرجعية مساعدة الإنسان على الرشد الإنساني بالسلوك المهذب والتفكير الدقيق.

وهنا نجد دعوة الروحية (يعني الدين، فهو ذروة الروحية) ليست دعوة إلى الانتكاس وليست دفعاً بالإنسان إلى الوراء ـ وهو مرحلة الطفولة الإنسانية ـ بل هي دفع إلى الأمام، إلى رشد الإنسان وكماله وتمام تطوره. كما نجد دعوة المادية ليست دعوة إلى التقدم والتطور، بل على العكس هي دعوة إلى الطفولة

---

(١) سورة الفرقان: ٤٣، ٤٤

(٢) بعنوان «تحديد المفاهيم أولاً».

الإنسانية، دعوة إلى الحيوانية في الإنسان. . . ودعوة إلى إهمال الخصيصة التي تميزه عن الحيوانية، وهي مستوى الإنسانية.

وإذن ما توصف به الروحية من أنها رجعية، وما توصف به المادية من أنها تقدمية، أغفل فيه تاريخ كل من الروحية والمادية، وحدد مفهوم كليهما من رغبات خاصة».

المفاضلة بين القديم والحديث:

والخلاصة أن المفاضلة بين القديم والحديث غير علمية، ولا معنى لها.

أولاً: لأن القدم والحدوث من الأمور الاعتبارية غير الحقيقية. فرب حديث عند قوم يعتبر قديماً عند غيرهم. والعكس كذلك.

ثانياً: لأن القدم والحدوث من الأمور غير الثابتة، فقديم اليوم كان حديثاً وحديث اليوم سيغدو قديماً.

ثالثاً: لأن القدم أو الحدوث لا يحمل في ذاته حقاً ولا باطلاً، ولا خيراً ولا شراً، وولع بعض الناس بالحديث، يقابله شغف آخرين بالقديم.

فليكن بحثنا عن الحق، قديماً كان أو حديثاً، فلن ينفع الباطل أن يكون وليد اليوم، ولن يضر الحق أن تمضي عليه ألوف السنين. والعكس صحيح أيضاً.

بين التغريب والتحديث:

بقي ما يقال من أن الاهتداء بالتراث الإسلامي، وبعبارة أصرح: الرجوع إلى المنهج الإسلامي، سيحول بيننا وبين تحديث مجتمعنا، وتحديث حياتنا، بحيث نتحول إلى مجتمع معاصر، يحيا حياة معاصرة.

وهنا نعود إلى النقطة التي لا مفر من التنبيه عليها، والتذكير بها دائماً، وهي «تحديد المفاهيم».

فما المراد من «التحديث»؟ أو «المعاصرة»؟.

إن كان المراد «بالتحديث» هو «التغريب» فهو مرفوض قطعاً لدى دعاة الحل الإسلامي.

فالغرب له دينه ولنا ديننا، له قيمه ولنا قيمنا، له مفاهيمه ولنا مفاهيمنا، له تقاليده ولنا تقاليدنا، له مواريثه ولنا مواريثنا، له حضارته ولنا حضارتنا.

ومن الخطأ البيِّن التوهُّم أو الإيهام بأن الحضارة القائمة في عصرنا ليست غربية، بل هي عالمية، فهذا غير صحيح.

فهذه الحضارة غير حضارة المسلمين، وغير حضارة الهنود، وغير حضارة الصينيين، وغير حضارة اليابانيين، ولكل حضارة خصائصها.

صحيح أن حضارة الغرب هي الحضارة الغالبة والسائدة، بحكم ظروف كثيرة، وعوامل شتى، ولكن الغرب هو صاحبها، وبصماته عليها في كل جوانبها، وتحمل فلسفته في الحياة، ونظرته إلى الدين والدنيا، وإلى الكون والإنسان والتاريخ، وتصوره عن الألوهية، وعن الآخرة، وعن القيم والأخلاق.

ولهذا لا نرضى أن يكون مجتمعنا نسخة عن المجتمع الغربي المعاصر، ولا حياتنا صورة للحياة الغربية المعاصرة، ولا إنساننا تقليداً للإنسان الغربي المعاصر. ولا أن نتبع سنن الغرب شبراً بشبر، وذراعاً بذراع.

فإن كان هذا هو المقصود بالتحديث، فلا، ثم لا، فما يرضى مجتمع أصيل ولا فرد أصيل، أن يذوب في غيره، ويمحو شخصيته، ولا أن يكون ذنباً، وقد خلقه الله رأساً، أو عبداً، وقد جعله الله حراً.

وإن كان المراد بـ «التحديث» و«المعاصرة»: الاستفادة ـ إلى أقصى حد ممكن ـ من منجزات العلم المعاصر، وتطبيقاته التكنولوجية، ونقل أفضل ما عند القوم من مبدعات التنظيم والإدارة، وإتقان العمل، فإن الإسلام بقرآنه وسنته وتراثه كله، يرحب بذلك أبلغ الترحيب، ويعين عليه أعظم المعونة، بل

إنه ليعتبر ذلك فريضة دينية واجبة على الأمة، إذ لا يتم لها استقلالها الحقيقي وسيادتها في أرضها، وقيامها برسالتها محلياً وعالمياً ـ إلا ببلوغ ما بلغه الغرب من تقدم علمي وتقني وإداري وتنظيمي، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب كما قرر علماؤنا.

بل إن المطلوب في الأصل من الأمة الإسلامية أن تتفوق على غيرها في هذه المجالات حتى تكون كما أراد الله لها شهيدة على الناس.

على أن الأهم من منجزات العلم واستخداماته التكنولوجية هو «الروح العلمية» و«العقلية العلمية» و«المنهجية العلمية» التي هي العلة الأولى وراء هذا كله.

وهذه الروح، والعقلية، والمنهجية، نحن أولى الناس بها، فالإسلام بكتابه وسنة نبيه، بقيمه وتعاليمه، أقدر من أي فلسفة أو نظام على تكوين تلك الروح العلمية، والعقلية العلمية، والمنهجية العلمية.

فبدل أن نتسول ذلك من موائد غيرنا، نعود إلى أصولنا وحضارتنا فنستمد منها. وسنجد عند ذلك من الحوافز والمعاني ما لا نجده عندما نستورد ذلك من الغرب أو الشرق.

وقد عرضت لهذا الأمر في أكثر من كتاب من كتبي، وعرضت له في هذا الكتاب نفسه في أكثر من موضع، ولا بأس من التكرار حتى يتعلم الجاهل، ويتنبه الغافل، ويصمت المكابر، وحسبنا الرجوع إلى الفصلين الأول والثاني، ففيهما غناء[1].

كما أن الأهم من الاعتناء بأشكال الإدارة وصور التنظيم: الروح التي تسير ذلك وتنشطه وتدفعه إلى الأمام، روح الإيجابية والجدية، والحرص على النظام والإتقان، والتعاون مع الآخرين.

---

(١) يمكن الرجوع أيضاً إلى كتابنا «الرسول والعلم» فصل (الرسول والعلم التجريبي) وفصل: نعم للعلمية، ولا للعلمانية من كتابنا «الإسلام والعلمانية».

والإسلام أقدر من غيره على إيجاد هذه الروح وتغذيتها، وإمدادها بالوقود الدائم واللازم، حتى تحقق هدفها.

فهذه الأمور كلها (من الجدية والنظام والاتقان والتعاون. . . الخ) قيم إسلامية أصيلة، يتقرب بها المسلم إلى ربه، ويتمم بها دينه، فهي من فضائل الإسلام وشعب الإيمان. . .

ولو أحسنا تربية أبنائنا في الصغر، وتوعيتهم في الكبر، بمعاني الإسلام والإيمان والإحسان، لاستطعنا أن نعوض ما فاتنا في زمن البعد عن الإسلام الصحيح.

لنضرب مثلاً يقرب المفهوم المراد من الحداثة ويوضحه.

إذا أردنا أن ننشىء بناية حديثة، وبعبارة أخرى: أن (نحدّث) بناء المنازل والأحياء والمدن في مجتمعنا، فما الذي يجب أن نصنعه لنخرج من القدم إلى الحداثة أو من تخلّف العصور القديمة إلى تقدّم العصر الحديث في فن الإنشاء والتعمير؟.

هنا يقتضي التحديث أن نرجع إلى أهل الاختصاص في هذا الأمر، لتقديم الدراسة اللازمة عن الموقع الذي يشاد فيه البناء ومدى صلاحيته للغرض المنشود وموافقة الجهات الصحية والبلدية عليه، ومدى إمكان البناء فيه بدون معارضة من الجيران أو من بعض الدوائر الحكومية كالزراعة أو الري أو الآثار. . . ونحوها، وعن مبلغ إمكان توصيل المرافق الضرورية إليه من الماء والكهرباء وغيرها، وعن نوعية التربة وعلاقتها بالأساس وعمقه وحجمه، الخ، هذه السلسلة من المعلومات التي لا يقوم بناء حديث إلا بعد توافرها.

ولا بد بعد ذلك من تصميم هندسي متكامل، يشاد البناء على أساسه، ومراعاة الخامات المطلوبة بأنواعها ومقاديرها، من المسلّح وغيره، حسب الامتداد سعة وعمقاً وارتفاعاً، وتأمين القدر الكافي من الإضاءة والتهوية ومراعاة التوصيلات اللازمة للكهرباء والماء، والتليفونات، والتلفاز وما شابهها،

بالمـواصفـات والشـروط العصرية، والتنبيه للحاجات المتنوعة حسب تنوع المناطق والمناخات مثل التدفئة في الشتاء، والتبريد في الصيف، وحسب علو المبنى بحيث يحتـاج إلى (مصعد) أم لا، وتوفير الأجهزة الحديثة لإطفاء الحريق، والأماكن اللازمة لتصريف القمامة، وتهيئة مكان لمواقف السيارات، إلى آخر هذه السلسلة من الاجراءات التي يقوم عليها الهيكل المادي للبناء.

ولكن هذا البناء الحديث الذي يتابع مقيموه أحدث ما انتهى إليه العصر من علم وتكنولوجيا، لا يؤدي غرضه بالنسبة للإنسان المسلم ما لم يتضمن شروطاً ومواصفات أخرى، تتعلق في غالبها بجوانب غير مادية، جوانب تتمايز فيها الحضارات والمجتمعات بعضها عن بعض.

إن المسلم لا يبني في أرض مغتصبة. فإن بقاءه فيها حرام، وصلاته فيها لا تقبل.

كما أن المسلم يهمه في الدرجة الأولى ألا يجرح أحداً من جيرانه، وألا يجرحه أحد كذلك، فلا بد من المحافظة على استقلالية البيوت، بحيث يبقى لكل منها خصوصيته.

وفي داخل البيت لا بد من الفصل بين مكان الاستقبال وسائر البيت، حتى لا يطلع أجنبي على عورات من في الداخل.

وينبغي أن يراعى في ترتيب حجرات البيت ـ بقدر الإمكان ـ بحيث يفرق بين البنين والبنات بعد سن العاشرة، كما جاء في الحديث: «وفرقوا بينهم في المضاجع».

كما يجب الاهتمام في دورات المياه بأن المسلم مطالب بالطهارة اليومية من الاستنجاء والوضوء والغسل، فيراعى ذلك في تصميمها.

وكذلك لا يعرف المسلم «البار» في منزله، فالخمر أم الخبائث، وهو لا يشربها، ولا يسقيها لغيره.

وينبغي أن يتسم البناء الإسلامي عامة بالبساطة والاعتدال مع المتانة والأناقة والجمال، فإن الله جميل يحب الجمال، ويبتعد عن مظاهر السرف والترف المدمرة للأمم، مثل استخدام الذهب والفضة في الأبواب والحمامات ونحوها. . . والابتعاد عن التماثيل، فإن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه تماثيل.

هذا مع الحرص على السعة المناسبة للسكان وحاجاتهم، فقد كان من دعائه عليه الصلاة والسلام: «اللهم وسع لي في داري».

ومن ذلك: أن يكون للضيف مكان، فإن إكرام الضيف من شعب الإيمان، وفي الحديث الصحيح: «فراش للرجل، وفراش للمرأة، وفراش للضيف، والرابع للشيطان»، وهذا يدل على أن الزيادة من غير حاجة مظنة الدخول في الحرج والإثم.

وقبل ذلك كله أن يكون للمنطقة السكنية مرافق أساسية مشتركة في مقدمتها المسجد، الذي يلزم مراعاته في التخطيط مثل المدرسة والمستشفى والسوق والبريد وغيرها. . .

بل إن أول مشروع أسسه النبي ﷺ، في المدينة بعد الهجرة كان المسجد، إذ هو محور نشاط الجماعة المسلمة، دينية وثقافية واجتماعية وصحية ورياضية، وينبغي أن يراعى في بنائه أداء هذه الخدمات المتعددة وإعطاؤه من المساحة ما يكفي، ووضعه في وسط المنطقة السكنية بحيث ييسر لأهلها أداء الصلوات والمشاركة في النشاط.

وبهذا كله يتبين أن التحديث ليس معناه نقل مبنى أوروبي أو أمريكي حديث بعجره وبُجره إلى بيئتنا العربية الإسلامية، بل معناه نقل تكنولوجيا البناء العصري، ومستلزماتها فقط، أما أهداف المبنى وما يؤديه من خدمات وما يحكمه من قيم، وما يلابسه من اعتبارات معنوية، فمرده إلى الأصول والمواريث التي يتعايش بها كل مجتمع، ويحتكم إليها، والخلط بين الأمرين يفضي إلى فساد كبير، وضلال مبين.

ومن غرائب المصادفات أني يوم كتبت هذا الكلام فتحت صحيفة (الأهرام) الصادرة بالقاهرة، في ١٩٨٧/١١/٢٦ فإذا بي أجد حديثاً للمهندس الكبير حسن فتحي الذي فاز بلقب أحسن مهندس انشاءات في العالم، وإذا هو يؤكد في حديثه ما قلته هنا، ولا بأس أن أنقل بعض فقراته لما فيها من عبرة.

يقول: «التطور والتغير في العالم يفرض لونين من التأثير للحضارات.

فهناك ما يمكن تسميته (المتبادلات في الحضارة) أي ما تنقله حضارة عن حضارة أخرى.

وهناك ما يمكن تسميته (غير المتبادلات في الحضارة) أي ما لا يصلح للنقل من مجتمع إلى مجتمع آخر.

ونحن بكلِّ أسف ـ ننقل غير المتبادلات التي أفرزتها الحضارة الغربية.

ونسمع فينا من يقول بأخذ كل شيء من الغرب. بينما إفراز الحضارة الغربية فيه أشياء يمكن أن تنفعنا، وفيه ـ أيضاً ـ أشياء ضدنا وضد تكويننا الحضاري.

صحيح أن التغيــر من طبيعة الحياة الإنسانية، وأنه من المستحيل أن يمكث كل شيء كما هو بحالته إلى الأبد.

ولكن لا بد أن نعلم جميعاً أن عناصر الحضارة بعضها ثابت ولا يمكن لأي مستجدات أن تغيره، وبعضها هو الذي يخضع لقانون التغير، والتأثر بالمتغيرات التي تحدث في الدنيا من حولنا». أ. هـ.

الإسلام يفي بكل حاجات المجتمع التقدميّ:ـ

ونود أن نوجّه سؤالاً صريحاً إلى هؤلاء الذين يهاجمون التراث الإسلامي، أو على الأقل يتوجسون منه خيفة: أي شيء يريده المجتمع الحديث المتقدم حقاً، ولا يدعو إليه الإسلام؟: العلم؟ الحرية؟ المال؟ القوة؟ الصحة؟ الحياة الطيبة؟ الزراعة؟ الصناعة؟ التجارة؟.

إن الاسلام يدعو إلى هذا كله، ويقيم عليه مجتمعه، فلنقل كلمة في كل منها :ـ

العـــــلم :ـ

إن العلم النافع في الإسلام ليس مجرد حق للإنسان، إن شاء حصله، وإن شاء تركه. بل هو فرض عين أو فرض كفاية، على حسب احتياج الفرد أو احتياج المجتمع إليه، سواء أكان علم دين أم علم دنيا. والإسلام أعظم دين يكون العقلية العلمية الواعية، فهو يدعو إلى البرهان ويرفض التقليد، واتباع الظن والهوى، ويحث على التفكر في الأمور بحياد وإنصاف **﴿قل: إنما أعظكم بواحدة، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا﴾**(١) ويأمر بالنظر في خلق السموات والأرض **﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض، وما خلق الله من شيء﴾**(٢). ويعد اتباع الأوهام ـ مثل تصديق الكهنة والعرافين وأشباههم ـ كفراً بما أنزل الله على محمد، ﷺ. وهو يدعو إلى الاستفادة من العلم النافع أياً كان أهله والتماس الحكمة من أي وعاء خرجت، فهي ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها. كما يقر الإحصاء والتخطيط للمستقبل، كما تدل على ذلك سنة النبي ﷺ. ويعتبر التجربة في الشؤون الدنيوية كالزراعة ونحوها هي المقياس الذي يجب الرجوع إليه(٣).

وقد قامت في ظل الإسلام أعظم حضارة جمعت بين العلم والإيمان، كانت كتب علمائها ـ وهي مكتوبة بالعربية أساساً ـ مراجع للعالم لعدة قرون، وكانت جامعاتها منارات للعلم يؤمها الطلاب من أنحاء الدنيا. ومن أساتذتها ومناهجها وكتبها اقتبست الحضارة الغربية، وعلى أساسها قامت نهضتها.

وهذا ما وضّحناه في الفصلين السابقين.

---

(١) سورة سبأ: آية ٤٦.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٨٥.

(٣) راجع كتابنا «الرسول والعلم» نشر مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ودارالصحوة ـ القاهرة.

الفـــــن :-

لعل الفن هو أكثر ما يُشغب به على دعاة الحل الإسلامي، فهم يقولون: إنكم تدعون إلى حياة تحرم فيها البسمة على أي فم، والبهجة على أي قلب، والزينة في أي موقع، والإحساس بالجمال في أي صورة.

وأحب أن أقول: إن هذا كلام لا أساس له من دين الله، وإذا كان روح الفن هو الشعور بالجمال، والتعبير عنه، فالإسلام أعظم دين أو مذهب غرس حب الجمال والشعور به في أعماق نفس كل مسلم.

وقارىء القرآن الكريم يلمس هذه الحقيقة بوضوح وجلاء وتوكيد. فهو يريد من المؤمن أن ينظر إلى الجمال مبثوثاً في الكون كله، في لوحات ربانية رائعة الحسن، أبدعتها يد الخالق البارىء المصور الذي أحسن خلق كل شيء، وأتقن تصوير كل شيء: ﴿**الذي أحسن كل شيء خلقه**﴾ (السجدة: ٧)، ﴿**ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت**﴾ (الملك: ٣)، ﴿**صنع الله الذي أتقن كل شيء**﴾ (النمل: ٨٨).

ثم نرى القرآن الكريم بعد ذلك يلفت الأنظار، وينبه العقول والقلوب، إلى الجمال الخاص لأجزاء الكون ومفرداته.

فهو يلفت النظر إلى جمال السماء من فوقنا. ﴿**أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيَّناها وما لها من فروج**﴾ (ق: آية٦)، ﴿**ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيَّناها للناظرين**﴾ (الحجر: ١٦).

﴿**الذي خلق سبع سموات طباقاً، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصرُ خاسئاً، وهو حسير، ولقد زيّنا السماء الدنيا بمصابيح . . .**﴾ (الملك: ٣-٥).

ويلفت النظر إلى جمال الأرض، وما أخرجت من نبات بهيج، يسر الناظرين ﴿**وأنبتت من كل زوج بهيج**﴾ (الحج: ٥)، ﴿**فأنبتنا لكم به حدائق**

ذات بهجة﴾ (النمل: ٦٠)، **﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾** (الأنعام: ٩١).

وكذلك إلى جمال الحيوان في غدواته وروحاته، في مشهد طبيعي خلّاب، يقول القرآن بعد ذكر منافع الأنعام: **﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾** (النحل: ٦).

كما ينبه على الجمال في الإنسان الذي خلقه الله **﴿في أحسن تقويم﴾** (التين: ٤)، **﴿وصوّركم فأحسن صوركم﴾** (التغابن: ٣)، **﴿الذي خلقك فسوّاك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركّبك﴾** (الانفطار: ٧، ٨).

إن القرآن بهذا كله، وبغيره، يريد أن يوقظ الحس الإنساني، حتى يشعر بالجمال الذي أودعه الله فينا وفي الطبيعة من فوقنا، ومن تحتنا، ومن حولنا، وأن نملأ عيوننا وقلوبنا من هذه البهجة، وهذا الحسن، المبثوث في الكون كله.

وبعض الحضارات تغفل هذا الجانب وتوجه أكبر همها إلى محاولات الإنسان إلى نقل جمال الطبيعة على حجر أو ورق، أو غير ذلك. فهو يرى السماء أو البحر أو الجبل، أو الأنعام، ولا يلتفت إلى ما فيها من سر الجمال الإلهي، وإنما يلتفت إليها حين تنقل إلى لوحة، أو صورة مشكلة. فليت شعري أيهما أهم وأقوى تأثيراً في النفس البشرية: الأصل الطبيعي أم الصورة المقلدة؟؟.

إن الإسلام يحيي الشعور بالجمال، ويؤيد الفن الجميل، ولكن بشروط معينة، بحيث يصلح ولا يفسد، ويبني ولا يهدم.

وقد أحيا الإسلام ألواناً من الفنون، ازدهرت في حضارته وتميزت بها عن الحضارات الأخرى مثل فن الخط والزخرفة والنقوش: في المساجد، والمنازل، والسيوف، والأواني النحاسية والخشبية والخزفية وغيرها.

كما اهتم بالفنون الأدبية التي نبغ فيها العرب من قديم، وأضافوا إليها ما تعلّموه من الأمم الأخرى، وجاء القرآن يمثل قمة الفن الأدبي، وقراءة القرآن

وسماعه عند من عقل وتأمَّل إنَّما هما غذاء للوجدان والروح لا يعدله ولا يدانيه غذاء، وليس هذا لمضمونه ومحتواه فقط، بل لطريقة أدائه أيضاً، وما يصحبها من ترتيل وتجويد وتحبير تستمتع به الآذان، وتطرب له القلوب، وخصوصاً إذا تلاه قارىء حسن الصوت، ولهذا قال النبي ﷺ لأبي موسى: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود»[1].

الحريـــــة:ـ

أما الحرية، فقد أقرها الإسلام بل أوجبها وفرضها بكل أنواعها، ما لم تتضمن عدواناً على مصلحة الإنسان، وخصائص الإنسان.

الحرية الدينية، وحسبنا فيها قوله تعالى: **﴿لا إكراه في الدين قد تبيَّن الرشد من الغي﴾**.

والحرية الفكرية: حرية العقل في أن ينظر ويفكر ويرى ويرجح، ولا يقلد غيره، فقد خلق العقل لذلك، وقبيح بمن أعطي شمعة أن يطفئها ويمشي في الظلمة، كما قال الإمام ابن الجوزي.

الحرية العلمية: حرية الاجتهاد العلمي، وافق اجتهاد الغير أم خالفه، حتى أن الإسلام يعلن أن المجتهد مأجور على اجتهاده، وإن أخطأ فيه، ولولا الخطأ ما تعلم الإنسان الصواب. ومن هنا رأينا المذاهب والمدارس الفقهية والكلامية والصوفية ونحوها، تتعايش في الحضارة الإسلامية ويسع بعضها بعضاً.

الحرية السياسية: حرية الشعب في اختيار حاكمه وحقه في الشورى وإلزامه بنتيجتها، وحقه في نصيحته ومراقبة أعماله، ونقد ما يراه مخالفاً للشرع أو للمصلحة منها، وفقاً لقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحقه في رفض أي أمر فيه معصية لله تعالى، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق،

---

(١) رواه البخاري والترمذي.

بل حقه في خلعه إذا انحرف عن الشرع أو عطل حكم الله أو أظهر كفراً بواحاً عنده فيه من الله برهان.

الحرية المدنية: حرية الإنسان في الحركة والتنقل واختيار العمل الذي يناسبه في المكان الذي يلائمه، وحريته الشخصية داخل مسكنه الخاص فلا يتجسس عليه، ولا يقتحم عليه حرمة منزله.

وفي كل هذه الأنواع من الحرية نصوص صريحة لا مطعن فيها.

المـــــال:

إن الإسلام قد حث على تحصيله من وجوهه المشروعة، وحسن تنميته بالطرق السليمة، وتوزيعه على أهله بالمعروف، وإنفاقه في الحق، وإمساكه عن الباطل، ووصف القرآن المال بأن الله جعله للناس «قياماً»، وأمر بالحجر على السفهاء الذين لا يحسنون التصرف فيه، وجعل الإسلام «الغني الشاكر» أفضل من «الفقير الصابر» ووضع لذلك أفضل نظام اقتصادي عرفه البشر جمع خير ما في المذهبين المتنازعين: الرأسمالية والشيوعية، وتنزه عن مساوئهما، فأقر الملكية الخاصة المقيدة بالحق، والحرية المقيدة بالعدل، والغنى المقيد بحدود الشرع، في التملك والتنمية والإنفاق والاستهلاك.

القوة العسكريـــــة:

إن إعدادها في الاسلام فريضة أمر بها الله ورسوله، يقول القرآن: **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾**[1]. **﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً﴾**[2]. **﴿ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾**[3]. ويقول الرسول ﷺ: «من مات ولم يغز، ولم

---

(١) سورة الأنفال: آية ٦٠.

(٢) سورة النساء: آية ٧١.

(٣) سورة النساء: آية ١٠٢.

يحدِّث به نفسه مات على شعبة من النفاق»[1]. «من علم الرمي ثم تركه، فهي نعمة كفرها»[2]. وهذه النصوص تقتضي فرضية التدريب العسكري على الأمة كلها، استعداداً للطوارىء التي تقتضيها أن تنفر جميعاً ثم استمرار هذا التدريب حتى لا ينسى. وبهذا تكون أمة مجاهدة قادرة على الدفاع عن نفسها، تغزو ولا تغزى، فما غزي قوم في عقر دارهم إلَّا ذلوا.

الصحــــة العامــة:

لقد جاء الإسلام يدعو إلى النظافة حتى جعلها شرطاً لصحة الصلاة، وأوصى بالاغتسال مرة في كل أسبوع، وجعل ذلك حقاً على كل مسلم، وحث على نظافة الشعر والفم والأطراف بصفة خاصة، وأمر بنظافة البيوت والطرقات، وجعل إماطة الأذى عنها عبادة، ونهى عن التبول والتبرز في الماء أو الظل أو الطريق. وحذر من العدوى وقال: «فِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد»، وفرض العزن الصحي، على المصابين بالأوبئة كالطاعون، وحرم المسكرات والمخدرات، وكل ما يضر بالصحة، «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» وأمر بالتداوي «فما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء» ونهى عن الإسراف في أي عمل يؤذي البدن، ولو كان هو العبادة «إن لبدنك عليك حقاً».

الحيــاة الطيبــة:

إن الاسلام يرحب بها، ويدعو إليها، بل جعلها مثوبة للمؤمنين الصالحين في الدنيا، قال الله تعالى: **﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾**[3]. وقال للرسول وأصحابه: **﴿فآواكم وأيَّدكم بنصره ورزقكم من الطيِّبات لعلَّكم تشكرون﴾**[4]. وأنكر القرآن بشدة على الذين

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/٩٥) وأصله في أبي داود وغيره.

(٣) سورة النحل: ٩٧.

(٤) سورة الأنفال: ٢٦

يحرمون على أنفسهم وعلى الناس زينة الله وطيبات الحياة. . . ﴿**قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده، والطيبات من الرزق؟**﴾[١].

الإسلام يبيح اللهو البريء، والألعاب المسلية، وألوان الرياضة والفروسية في غير إسراف ولا دخول في قمار.

الإسلام يريد حياة جادة عاملة يتخللها اللهو، ولا يريد حياة لاهية عابثة يتخللها العمل.

إنما حرم الإسلام ما يضر بالفرد أو الأسرة أو المجتمع، مثل أواني الذهب والفضة التي هي أحد مظاهر الترف الذي يدمر المجتمعات، ومثل ثياب الحرير، وحلي الذهب، على الرجال، حفظاً لجانب الرجولة فيهم. وما حرّم الإسلام إلَّا خبيثاً، ولا أحلَّ إلَّا طيِّباً، وما حرّم شيئاً إلَّا عوّض الناس خيراً منه ﴿**يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم**﴾[٢].

الزراعـــــة:

إن الإسلام قد حث عليها، ورغب فيها أعظم الترغيب حتى جعل كل ما يؤكل من الزرع أو الغرس، لصاحبه صدقة، ولو أكل منه طير أو بهيمة. والرسول أول من دعا إلى «التشجير»، ووعد على ذلك بأوفى المثوبة عند الله «من نصب شجرة: فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر فإن له في كل شيء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل»[٣]. وحسبنا هذا الحديث الشريف «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة (نخلة صغيرة) فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها»[٤].

---

(١) سورة الأعراف: ٣٢

(٢) سورة الأعراف: ١٥٧

(٣) رواه أحمد في مسنده.

(٤) رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد.

وفي كل كتب الفقه الإسلامي باب لبحث شؤون المزارعة والمساقاة، وما يجوز منها وما لا يجوز مما يدل على عناية المجتمع الإسلامي بها، ورعايته لها... وباب آخر لـ «إحياء الموات» ويراد به استصلاح الأرض البور «ومن أحيا أرضاً ميتة فهي له»[1].

التجـــــارة:

إن القرآن يخلع عليها وصفاً جميلاً يوحي بالرضا والقبول وهو «الابتغاء من فضل الله» ويشرع التجارة حتى في موسم الحج ﴿**ليشهدوا منافع لهم**﴾[2]، ﴿**وليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربّكم**﴾[3]. ويصف القرآن العبّاد المتقين بأنهم ﴿**رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله**﴾[4] فهم مع تقواهم وعبادتهم تجار عاملون.

والرسول ـ ﷺ ـ يرفع التاجر الصدوق إلى مكانة لم يحلم بها أحد قبل الإسلام، «التاجر الصدوق الأمين مع النبيِّين والصدِّيقين والشهداء»[5].

هذا على حين كان رجال الكنيسة في العصور الوسطى يعتبرون ممارسة الأعمال التجارية خطيئة، لأنها تصرف النفس عن الله.

كل ما في الأمر أن الإسلام وضع لها قيوداً وشروطاً، بحيث لا تكون تجارة فيما حرم الله، ولا تشتمل على ظلم أو ضرر أو غرر فاحش، أو غش أو احتكار، أو تطفيف، أو أي معاملة يحظرها الإسلام.

الصنـــــاعة:

لقد جعل فقهاء الإسلام كل صناعة يحتاج إليها المجتمع المسلم فرض

---

(١) رواه

(٢) سورة الحج: ٢٨

(٣) سورة البقرة: ١٩٨

(٤) سورة النور: ٣٧

(٥) رواه الحاكم والترمذي وحسنه.

كفاية، إذا لم يقم بها عدد كاف منهم أثموا جميعاً، وبخاصة أولـو الأمر منهم، وقد ذكر القرآن صناعات كثيرة مدنية وعسكرية، كصناعة السفن التي علمها الله لنبيه نوح... وصنعـة البناء التي كان يحسنها خليل الله إبراهيم وابنه إسماعيل... وصناعة الدروع التي أثنى بها على نبيه داود **﴿وعلمناه صنعه لبوس لكم﴾**[1]... وصناعة السدود التي أثنى بها على عبده ذي القرنين **﴿آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين، قال: انفخوا، حتى إذا جعله ناراً، قال: آتـوني أفرغ عليه قطراً. فما اسطاعوا أن يظهروه، وما استطاعوا له نقبا﴾**[2]... وصناعة النحاس التي منَّ الله بها على سليمان **﴿وأسلنا له عين القطر﴾**[3]... والصناعات المتعلقة بالحديد حربية ومدنية، **﴿وأنزلنا الحديد فيـه بأس شديـد** (اشـارة إلى الصنـاعات الحربية) **ومنافع للناس﴾**[4]... والصناعات الزراعية **﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً﴾**[5] وصناعات الدباغة والغزل والنسيج ونحوها **﴿وجعل لكم من جلود الأنعـام بيـوتـاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾**[6].

ويبارك الإسلام كل حِرْفة نافعة تغني المسلم عن التكفف وسؤال الناس الذي يحرمه الإسلام «لأن يأخذ أحدكم حبله على ظهره فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»[7].

إن الإسلام يحث المسلمين على أن يكونوا متفوقين في وسائل الدنيا

---

(١) سورة الأنبياء: ٨٠

(٢) سورة الكهف: ٩٦، ٩٧

(٣) سورة سبأ: ١٢

(٤) سورة الحديد: ٢٥

(٥) سورة النحل: ٦٧

(٦) سورة النحل: ٨٠

(٧) رواه البخاري.

ليخدموا بها أهداف الدين، يريدهم الإسلام أن يكونوا أساتذة الأمم والشهداء على الناس ليكونوا دائماً بحيث يستغنون عن دنيا الآخرين، والآخرون محتاجون إلى دينهم.

بناء الإنسان الصالح:

وأهم من هذا كله أن الإسلام يبني هذا المجتمع التقدمي المتحرر على أساس مكين، حين يبني «الإنسان الصالح» الذي هو دعامة المجتمع، وركيزة بنائه.

إنه يبني هذا الإنسان أولاً بالإيمان، بالعقيدة السليمة، التي تعرِّفه سرَّ وجوده، وتصله بالأزل والأبد، وتجيبه عن أسئلته الخالدة التي لا يستطيع العلم التجريبي، ولا التكنولوجيا المتطورة أن تجيبه عن شيء منها: من أنا؟ وما رسالتي؟ ومن أين جئت؟ وإلى أين أذهب؟ ولماذا أعيش؟ ولماذا أموت؟؟.

إنه يبني الإنسان بالإيمان بالله وبرسالاته وباليوم الآخر، ليعرف المبدأ والمصير. ثم يبنيه بالعبادة التي هي غاية خلقه ﴿**وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون**﴾[1]. بالصلاة التي تصله بربه، وتعينه على ضعفه، وتمنحه المدد الروحي في معركة حياته ﴿**يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة**﴾[2]. وبالزكاة التي يزكي بها نفسه، ويطهِّر ماله، ويرضي ربَّه ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهِّرهم وتزكِّيهم بها**﴾[3]. وبالصيام الذي يربي الإرادة ويعلم الصبر، ويذكر بالنعمة، ويشعر بالمواساة والرحمة، كما يغرس في النفس ملكة التقوى ﴿**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلّكم تتّقون**﴾[4]. وبالحج الذي هو هجرة إلى الله، بزيارة بيته، وتعظيم شعائره،

---

(١) سورة الذاريات: ٥٦

(٢) سورة البقرة: ١٥٣.

(٣) سورة التوبة: ١٠٣.

(٤) سورة البقرة: ١٨٣.

وتثبيت معنى عالمية دينه وتدريب على معاني الأخوة والمساواة التي دعا إليها، وشهود المنافع المادية، والمعنوية المتبادلة بين وفود المسلمين في هذا المؤتمر الربّاني.

ثم هو يبني الإنسان بعد ذلك بالأخلاق الفاضلة، والآداب العالية، والتقاليد الصالحة، والأسوة الحسنة، حتى يتكون في ظلها الإنسان المؤمن الصالح في نفسه والمصلح لغيره، إنسان «سورة العصر» الناجي من خسران الدنيا والآخرة، إنسان الإيمان والعمل، والتواصي بالحق والصبر **﴿والعصر إنَّ الإنسان لفي خُسر إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوا بالحَقِّ وتَواصوا بالصَّبر﴾**.

والأخلاق التي يريدها الإسلام ليست هي أخلاق العبودية والضعف واليأس إنما هي أخلاق المؤمن القوي المنتج، الواثق من نفسه، البصير بيومه، الآمل في غده، المتفائل المتفتح على ما حوله ومن حوله.

أجل، إن الإسلام أعظم موجه إلى هذه الأخلاق، ومجتمعه الصحيح أفضل بيئة لغرسها وتعهدها ورعايتها.

أما أخلاق العجز والكسل والضعف، فالإسلام يستعيذ بالله منها، ويدعو إلى ضدها «المؤمن القوي خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف»، «استعن بالله ولا تعجز»، «اللهم إني أعوذ بك من الهمِّ والحَزَن.. ومن العجز والكسل».

كما يكره الإسلام الذل والخضوع لبشر، كائنا ما كان، ويعلن ان العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ويدعو الناس جميعاً ألا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله. وهو ويحرض المؤمنين أن يقاوموا الظلم والباطل والمنكر بكل وسيلة يستطيعونها، باليد ثم باللسان ثم بالقلب، وذلك أضعف الإيمان.

ويجعل الركون إلى الظالمين والميل إليهم باباً موصلاً إلى جهنم، **﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار﴾**[1].

(١) سورة هود: ١١٣.

وخلق التوكل في الإسلام ليس معناه، طرح الأسباب، وترك الحذر والتدبير فقد قال تعالى ﴿**خذوا حذركم**﴾[1] وقال الرسول لصاحب الناقة «اعقلها وتوكل»[2] إنما معنى التوكل: الثقة بالله وقوة اليقين بما عنده، مهما نزل بالإنسان من نكبات.

والزهد ليس معناه ترك الدنيا يستحوذ عليها الكفار والملاحدة، بل الزهد أن تجمعها في يدك ولا تمكنها مِنْ قلبك... الزهد أن تملك الدنيا ولا تملكك، وألا تتخذها لك ربا، فتتخذك لها عبداً! وقد كان في الصحابة المبشرين بالجنة من يملكون الملايين، وهم عند الله ورسوله من المرضيين المقدمين. إن الزهد في الشيء إنما يكون لمن قدر عليه.

والقناعة ليس معناها الرضا بالحرمان، والترحيب بكابوس الفقر، فقد استعاذ الرسول من الفقر وقرنه بالكفر، وإنما معناها ما جاء في الحديث الصحيح... «ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس»[3].

والصبر ليس معناه: السلبية والقعود انتظاراً للفرج، إنما هو حبس النفس عن اتباع الهوى أو الاسترسال في الجزع، وتدريبها على ركوب المصاعب والمشقات، فإن الناس لن يدركوا ما يحبون إلا بصبرهم على ما يكرهون. وقد صبر النبي - ﷺ - والمسلمون في مكة على البلاء، في الوقت الذي سلك فيه كل السبل للبحث عن أرض خصبة ليهاجر إليها، ويبذر فيها دعوته، حتى كانت الهجرة إلى يثرب، وأقام فيها دولة الإسلام.

إن هذا الإنسان هو محور التقدم، وروح الإصلاح، ودعامة التنمية الحقيقية. وهذا الإنسان المؤمن الراقي لا تصنعه القوانين الوضعية، ولا الأنظمة الأرضية، من رأسمالية واشتراكية أو ديمقراطية، إنما تصنعه عقيدة تفجّرُ طاقاته،

---

(١) سورة النساء: ٧١.

(٢) رواه الترمذي عن أنس وهو حديث صحيح.

(٣) متفق عليه.

وتبرز مكنوناته. وتستثير ما في داخله من قدرات مبدعة. فيعمل أضعاف ما يعمل غيره، مع إحكام وإتقان. لأن الله يحب منه إذا عمل عملاً أن يتقنه، ولأن الله كتب عليه إحسان كل شيء يعمله، فهو يؤدي ما كتب الله عليه، ليؤدي الله له ما كتب على نفسه.

فليت شعري أي رجعية في هذه الأمور؟ وماذا يريد دعاة التقدم الحق أكثر من هذا إن كانوا ينصفون؟.

ألا إن من المضحك المبكي أن نجد بعض الكتاب والصحفيين يقول لنا إذا دعوناهم إلى الإسلام:

نحن لا نريد أن ندع السيارات، لنعود إلى ركوب الجمال!.

ولا نريد أن ندع القصور والعمارات لنعود إلى سكنى الخيام!.

ولا نريد أن ندع الطب الحديث لنعالج مرضانا بالتمائم والرقى!.

ولا نريد أن ندع ماكينات الري لنستعمل الشادوف والسواقي!.

ولا نريد أن ندع مصابيح الكهرباء، لنعود إلى سراج الزيت!.

هكذا والله ما كتبه يوماً بعض رؤساء التحرير في صحف عربية سيارة!.

فهل هؤلاء الكتاب يضحكون على أنفسهم أم يضحكون على قرائهم؟.

هل هم عمي عن الحقيقة أم متعامون؟ ﴿**إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين. وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون**﴾ (الروم: ٥٢، ٥٣).